عصره العلمي

عاش ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى ، عصر المماليك فى مصر وكانت بغداد قد سقطت فى أيدى التتار ٦٥٦ هـ ، وكان سقوطها كارثة مُنيت بها اللغة والأدب والحضارة العربية، ثم أخذت الدولة العربية تنهار فى الأندلس ، فتسقط المدن فى أيدى القوط واحدة بعد أخرى ، فلم يجد علماء بغداد وأدباؤها ملجأ يلوذون إليه غير مصر ، فراراً من عسف التتار بدار السلام وحاضرة الإسلام ، ورغبة عن الإقامة بها بعد ما خرب التتار معالمها ، وأغرقوا فى نهر دجلة كتبها . وفر علماء الأندلس إلى مصر جزعاً مما يصبه الفرنجة على المسلمين من ويلات التنكيل والتعصب المقيت .

وحبّبَ مصر إليهم ما يسمعونه عن خيراتها وكرم أهلها ، وأنها صارت عاصمة الخلافة الإسلامية ، فعجّت بهم مصر والقاهرة ، وكانوا أخلاطاً شتى ، فيهم الفارسى والعراقى والحجازى والشامى والإفريقى والأندلسى. وقد حقق المماليك ظنهم ، فأكرموا وفادتهم ، ورحّبوا بهم ، وأغدقوا عليهم الهبات والمنح ، فاطمأنت نفوسهم بعد قلق ، وأمِنَتْ بعد هَلَع ، فشرعوا يأتنفون الإنتاج العلمى والأدبى ، مدفوعين بالرغبة النفسية فى التأليف ، ومدفوعين بتنافس علمىٍّ منتج ، ثم هم يريدون أيضاً أن يعيدوا إلى المجد الإسلامى رواءه الذى طمس التتار معالمه ، ويريدون أن يُعوِّضوا المكتبة العربية مما فقدته فى نكبة بغداد والأندلس .

وقد كثر إنتاجهم فى هذا العصر ، حتى شَرِقت به خزائن الكتب ، كما

كثرت المدارس فى هذا العصر كثرة لا مثيل لها من قبل ، حتى إن المدرسة الفاضلية كان بها نحو مائة ألف مجلد .

وكان القاضى الفاضل يقتنى الكتب من كل فن ، ويجلبها من كل جهة ؛ وله نساخ ومجلدون لا يفترون ، وقد بلغ عدد كتبه قبل أن يتوفى بعشرين عاماً اثنى عشر ألفاً وأربعمائة كتاب (١) .

وقد أنشـــأ المدرسة المحمودية الأمير جمال الدين محمود الاستادار سنة ٧٩٧ هـ وأنشأ بها خزانة كتب لا نظير لها بمصر والشام ، وهى باقية إلى اليوم — عصر المقريزى — ، ولا يؤلف عالم كتاباً إلا اقتنته ، وبها كتب من كل فن (٢) .

وكان إنتاج العلماء على غزارته منوع الألوان والطرائق، يتناول كل فن وكل علم .

وكان بعضه جمعاً وتصنيفاً ، وبعضه اختصاراً لمطوّل أو تعليقاً على مختصر ، وكان بعضه ابتكاراً وتجديداً كمقدمة ابن خلدون .

ثم كان بعض المؤلفين لا يقتصرون على الجمع والتصنيف ، وإنما يحققون ويمحصون كالمقريزى ، وابن خلكان ، وابن مالك ، والشاطبى ، وابن هشام، وابن منظور .

ويمتاز هـذا العصر بوفرة كتبه الكبيرة الجامعة لأشتات من العلوم والثقافة والأدب ؛ مثل (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى (٧٠٠ — ٧٤٨ هـ) و(صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) لشهاب الدين أحمد بن على القلقشندى (المتوفى ٨٢١ هـ)

(١) الخطط ٢ / ٣٦٧ (٢) الخطط ٢ / ٣٩٥

و(نهاية الأرب فى فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد النُّوَيْرى (المتوفى ٧٣٣هـ)

ولمعت فى هذا العصر أسماء كثير من العلماء والمؤلفين غير هؤلاء مثل ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) وابن هشام (٧٠٨ — ٧٦١ هـ) والقسطلانى (٨٥١ — ٩٢٣ هـ) وابن مالك (٦٠٠ — ٦٧٢ هـ) والسيوطى (٨٤٩ — ٩١١ هـ) وابن منظور (٦٣٠ — ٧١١ هـ) والفيروز ابادى (٧٢٩ — ٨١٧هـ).

وكان للتاريخ نصيب عظيم من عناية العلماء، لأنهم أرادوا تسجيل ماضى العرب والإسلام، وتوخوا أن يغنوا المكتبة العربية بعد أن أفقرها التتار، ثم لأن الفرنجة تغلبوا على بعض بلاد الأندلس وطوّحوا بما وجدوا من مؤلفات .

على أن المؤلفين فى التاريخ أشبهوا المؤرخين السابقين فى جمعهم بين التاريخ والأدب ، وأشبهوهم أيضاً فى أنهم لم يجيدوا النقد لما يُروَى ، ولم يعلقوا على الحوادث برأيهم الذى ينم على شخصيتهم العلمية ، ولم يحللوها بتبيان دوافعها الحقيقية ونتائجها . ثم هم فى دراستهم لسير السلاطين والأمراء والوزراء لم يعرضوا لنشأتهم وبيئتهم وأثرها فى نفوسهم وميولهم . وهم فى دراستهم للأمم عُنُوا بالأحداث السياسية والحربية ، ولم يحفلوا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، وبذلك أرخوا للملوك لا للشعوب .

أما ابن خلدون فقد نظر إلى التاريخ نظرة أخرى ، فوضع أصولا تكفل للمؤرخ أن يتهدّى إلى الصواب، وأن تكون له شخصيته فيما يكتب، وبذّ سابقيه جميعاً بعنايته بدراسة أحوال المجتمع ، وتتبع الأحداث واستخلاص النتائج ، ثم إنه سلك فى التاريخ مسلك الحوادث لا مسلك السنين كما فعل الطبرى وابن مسكويه من قبله .

وكانت بلاد المغرب عاكفة على الحديث والفقه، ولاسيما مذهب مالك وأبي حنيفة ، وكانت العلوم الفلسفية هناك خافتة الصوت ، لأن الفلاسفة يضطهدون ، وتحرق كتبهم . يقول المقرى التلمساني (أما ملكة العلوم النظرية فهي مقصورة على البلاد الشرقية . ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط ، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون[1] إلى المشرق ، فلقي تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زماناً حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدم إلى تونس فانتفع به أهلها [2]

ولكن عبقرية ابن خلدون حطّمت قيود البيئة ، وحدود العلوم المرسومة ، فنبغ في عصر ندر فيه من يجدّد ، وسبق أهل زمانه سبقاً لا يدرك ، بل سبق من بعده سبقاً يُجهِد من يترسم خطاه ، أو يحاول أن يبلغ مداه .

---

(١) ابن زيتون : أبو القاسم بن أبي بكر المتوفى ٧٣٠ هـ

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ٣ / ٢٦